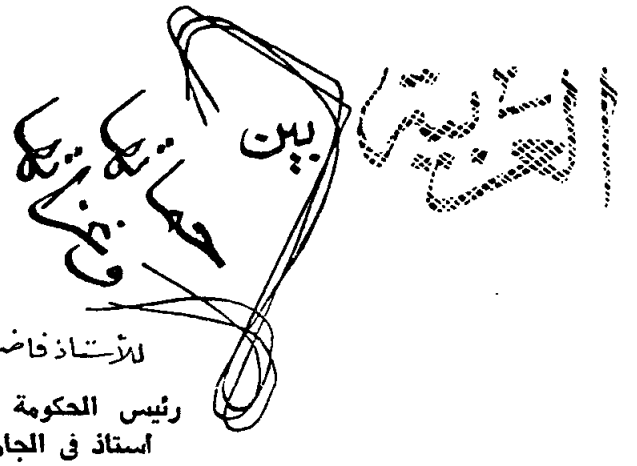

للأستاذ فاضل الجمالي
رئيس الحكومة العراقية سابقا
أستاذ في الجامعة التونسية

نص محاضرة قيمة القاها حضرة الاستاذ الجليل فاضل الجمالي في العاصمة التونسية وقد اتحفنا جنابه بها فننشرها شاكرين .

اني لست من علماء العربية ولا من ادبائها كما اني لست من الاختصاصيين في علم اللغات . وما انا سوى عامل بسيط في حقل الثقافة والتعليم اعتبر نفسي خادما امينا وجنديا مخلصا من جنود العربية ليس اكثر . وما سابديه هو ثمرة اختبارات واجتهادات شخصية في الحقول الاجتماعية والسياسية والتعليمية وهي الحقول التي عشت فيها وعملت . ولذلك فما سابديه هو عرضة للنقد والتعليق واكون ممتنا لكل من يتناولني بالنقد البناء والارشاد السديد .

واذا ابديت بعض الملاحظات عن سير العربية في بلاد المغرب العربي الكبير فلا يعني ذلك عدم تقديري للمصاعب الجسيمة التي خلفها الاستعمار لاقطار المغرب العربي الكبير في حقل اللغة العربية . كما لا يعني نكراني الجهود المحمودة التي يقوم بها اولو الامر في هذه الاقطار في سبيل احياء العربية وانعاشها . وانما (وهذا هو المهم) لاني اعتبر نفسي واحدا من ابناء المغرب العربي الكبير واتحدث كمواطن يريد لابناء قومه المزيد من العزة والتقدم ولاسيما في الحقل الثقافي والقومي .

واذا ما دعوت الى العناية بالعربية واحلالها المحل اللائق بها في حياتنا القومية فلا اريد بذلك الانقاص من اهتمامنا باللغات الاجنبية التي اعتبر العناية بها ضرورة حياتية بالنسبة لنا كأمة تسير في طريق النهوض والقضاء على التخلف . فالعالم المتمدن اليوم يؤكد على اضافة لغتين اجنبيتين على الاقل الى اللغة الام. هذه هي النزعة الجديدة الناشئة عن تقلص المسافات بين الشعوب وعن الترابط المتزايد بين الامم في الحقول السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية . فاذا دعوت الى احلال العربية محلها اللائق بها في الحياة القومية ولاسيما في معاهد التعليم كما سترون فلا اعني بذلك تقليل الاهتمام بالافرنسية او الانكليزية او غيرهما من اللغات . وانما اقول ان اي اهتمام باللغات الاجنبية لا يجوز ان يكون على حساب العربية وبنسبة القصور اليها كما يحاول البعض ان يبرر . انا اؤمن بسياسة المراحل التي يتزعمها فخامة الرئيس الجليل الحبيب بورقيبة في موضوع التعريب واحلال العربية محلها الطبيعي في التعليم ومع الاخذ بهذه السياسة وعلى ضوئها ادعو : الى احلال العربية محلها اللائق بها في حياتنا اليومية وفي ثقافتنا وفي المعاهد التعليمية على اختلاف انواعها وجميع مراحلها مع تهيئة الظروف الضرورية لذلك .

اللغة في حياة الامة :

اسمحوا لي بعد ابداء هذه الاحترازات الضرورية ان ابدأ اولا بالتحدث بايجاز عن **مكانة اللغة في حياة الامة :**

ان من يتتبع ماجريات الاحداث بمطالعة الصحافة العالمية قد اطلع ولابد على حركات عنيفة شغلت الصحافة واجهزة الاعلام العالمية في الشهور الاخيرة الى جانب الحوادث الدامية في الشرق الاوسط وفي الفيتنام . وهذه الحركات تتعلق باللغات القومية والمشاكل التي تنجم عنها :

1) في صيف 1967 قامت ضجة سياسة كبرى في العالم الغربي حين زار الرئيس ديغول « كيبك » في كندا وتحمس الناطقون باللغة الافرنسية الى تثبيت كيانهم اللغوي وما يتبع ذلك من تحديد وتوكيد شخصيتهم القومية والسياسية الافرنسية .

2) في الهند قامت مظاهرات صاخبة ودموية مؤخرا حول اللغتين الهندية والانكليزية . فهناك فئات في الهند تتكلم بغير الهندية وهي لذلك تتمسك باللغة الانكليزية كلغة رسمية للبلاد وتتظاهر ضد اللغة الهندية . وهناك فئات تتكلم بالهندية وتريدها ان تكون اللغة الرسمية للبلاد فهي تتظاهر ضد اللغة الانكليزية. ولم يرض اي الفريقين على سياسة الحكومة التي قررت ان تكون اللغتان الهندية والانكليزية رسميتين .

3) في بلجيكة استقالت الوزارة وحل مجلس النواب من جراء المشاكل الناجمة عن الصراع بين المتكلمين بالفرنسية والمتكلمين بالفلمندية . ولا تزال الازمة قائمة على ما نعلم .

4) في القدس المحتلة قررت اسرائيل فرض تعليم العبرية على أبناء العربية من مسلمين ومسيحيين .

هذه أمثلة من بقاع العالم المختلفة تدلنا على ان اللغة تلعب اليوم دورا خطيرا بين بني البشر في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية .

ان الروابط النفسية التي تدخل في تكوين شخصيات الشعوب والكتل البشرية المستقلة هي روابط العنصر والدين والقومية . واللغة تلعب دورا اساسيا في تكوين كل من هذه الروابط ولاسيما في الرابطة القومية . فاللغة وما تحمله من ثقافة هي الاساس في الرابطة القومية . هذا وان الرابطة العنصرية قد فقدت اهميتها في العصر الحديث بعد اندحار النازية في الحرب العالمية الثانية وبعد ثبوت بطلان نظرية الرس بسبب تمازج العناصر والتلاقح فيما بينها الامر الذي جعل موضوع نقاوة الدم والعنصر خرافة تقريبا . أما رابطتا الدين والقومية فما تزالان قائمتين في العالم اليوم . والرابطة القومية التي هي رابطة الثقافة واللغة هي اكثر الروابط انتشارا بين أمم الارض اليوم . هذا وان اسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم اليوم التي تبني كيانها على الاسس العنصرية والدينية والقومية معا .

اللغة هي المقوم الاساسي للرابطة القومية . وبها تتميز شخصية أمة عن أخرى . ولذلك فهي عنصر اساسي في تكوين الذاتية القومية وانيتها . فاذا قلت انا فلان . فمعنى ذلك اني أنتمي الى الامة الفلانية وان لي شخصية تتكون من جسدي وعقلي وروحي . فالجسد حصلت عليه بالوراثة البيولوجية عر طريق آبائي واجدادي . أما الفكر والروح فهما ارثان اجتماعيان مظهرهما اللغة والدين معا . فاحترام ابناء اي قوم لشخصيتهم وذاتيتهم يتطلب احترامهم للغتهم واعتزازهم بها . فمن أعز لغته القومية اعز ذاتيته وشخصيته ومن تهاون فيها أو اذلها فانما يذل شخصيته القومية وكرامته الانسانية . هذه حقائق معروفة ومعمول بها في كل البلاد المتمدنة اليوم . أما البلاد التي تخلصت من ربقة الاستعمار حديثا فانها تعرف حق المعرفة ان الاستعمار كان يحاول طمس شخصية الامة المولى عليها واخضاع شخصيتها لشخصية الامة المسيطرة وذلك عن طريق نشر لغته واعلاء شأنها والازدراء والاهمال للغة القومية للشعوب المولى عليها .

لقد كان لي دور متواضع في لجنة الوصاية في مؤتمر سان فرانسيسكو سنة 1945 حيث كتب ميثاق منظمة الامم المتحدة . فبعد ان نجحنا في درج حق الامم المولى عليها بالحكم الذاتي والاستقلال في صلب ميثاق الامم المتحدة بادرت بالسعي لادخال نص في الميثاق يضمن حماية الثقافة القومية (وفي مقدمتها اللغة القومية طبعا) للشعوب المولى عليها . معتبرا ان اللغة القومية الى جانب الدين تمثل الكيان الشخصي والقومي للبلاد التي كنا نجاهد من اجل تحررها واستقلالها . وقد نجحت في الامر اذ وضع نص في ميثاق الامم المتحدة يلزم الدول المستعمرة ان تحترم وتنمي الثقافات القومية للشعوب المولى عليها . ولن أنسى اني اثرت حفيظة الزميل الفرنسي في لجنة التدوين حين اكدت عروبة الجزائر . فانه سامحه الله قد هاج وماج وصرخ صرخة مدوية محتجا بأن الجزائر هي جزء من الوطن الام فرنسا . فما كان مني الا أن قابلته ببرودة دم وقلت له عفوا يا سيدي ان الجزائر بلد عربي مسلم يعتز بعروبته واسلامه . ومضت اللجنة في صوغ المواد المطلوبة من الميثاق وانتهى الامر .

اللغة ايها السادة هي عنوان شخصية الامة ومظهر كرامتها ومعيار حضارتها . فان ارتقت اللغة وازدهرت فذلك دليل على ان الحضارة قد ارتقت . وان ذبلت اللغة أو أهملت فذلك دليل على ان شخصية الامة قد ذبلت وانحطت .

ان التفاعل والتلاقح بين اللغات امر طبيعي محمود على أن يكون على اساس الاحترام المتبادل